الفصل الثامن

مكتبات العائلات المقدسية

منى محروس

كان في القدس العديد من العائلات العلمية، التي اهتمت بحفظ المخطوطات العربية القديمة، بالإضافة إلى المطبوعات النادرة، وأثرت تلك العائلات كثيرًا في الهوية العربية لمدن فلسطين، وعلى رأسها مدينة القدس، باعتبارها مركزًا مهمًا من مراكز العلم والثقافة، على مدار تاريخها، وقد أُنشئ العديد من المكتبات الخاصة بالعائلات المقدسية القديمة، التي احتوت على ما جمعه هؤلاء من نفائس الكتب والمخطوطات، لكن ما احتوت عليه تلك المكتبات قد فقد منه الكثير، وذلك للعديد من الأسباب، وعلى رأسها الاحتلال البريطاني، ومن بعده الصهيوني، لما قام به كلاهما من عمليات النهب المنظَّم لأهم الكتب، والمخطوطات، ونقلها إلى المعاهد الصهيونية، بالإضافة إلى قيام الاحتلال بحرق عدد كبير من خزائن الكتب العامة والخاصة، كما قام عدد من غير أهل العلم بنهب هذه المكتبات، وبيعها في الأسواق لأصحاب الأفران، وذلك ما يؤكده الشيخ الخليلي في وقفيته، المؤرخة في سنة ١١٣٩م، حيث قال: «إن الكتب قد قل وجودها بها [أي في الديار المقدسة]، ونقلها غير أهلها، وباعوها بأبخس الأثمان، وما ذاك إلا لقلة اشتغالهم بالعلوم، وعدم معرفتهم بالمنطوق والمفهوم». وفي موضع آخر، قال الشيخ الخليلي: «بيت المقدس كان فيه كتب كثيرة موقوفة من السلاطين، والأعيان، والأكابر، وقد استولى عليها أناس، وتصرفوا فيها بالبيع، والهدايا، للأعيان»[1].

يضاف إلى كل ما سبق ما أخذه الغربيون من نفائس الكتب والمخطوطات، التي اشتروها بأبخس الأثمان، في الوقت الذي لم تعرف فيه قيمة تلك الثروة من قبل أهل البلاد الذين باعوا أعدادًا لا تقدر بثمن منها إلى الأجانب، فضلًا على تسرب كثير من كتب التراث إلى أمريكا، وأوروبا، حتى الآن ثمة عدد من الصناديق المليئة بالمخطوطات في عدد من الجامعات الأوروبية، وفي جامعة هيدلبرج بألمانيا ثمة أعداد من الكتب عليها ختم المسجد الأقصى، وبعد

الاحتلال الإسرائيلي للقدس سنة ١٩٦٧م تسرب كثير من الكتب إلى الجامعة العبرية، وغيرها من مكتبات مراكز الأبحاث الصهيونية[٢].

تاريخ المكتبات في القدس

إن أي حديث عن وجود مكتبات في بلاد الشام، وفلسطين في جملتها، قبل القرن الثالث الهجري، هو غير ذي جدوى، باستثناء وجود عدد من نسخ القرآن الكريم في المساجد القديمة، منذ القرن الأول للهجرة، وتعد مكتبات المساجد أول ما عرف في فلسطين الإسلامية، ويعد كارثة حقيقية عدم وصول مخطوطات أصلية مما ألف في القرنين الثاني والثالث للهجرة إلى فلسطين، فكل ما وصل قد نسخ في العام السابع للهجرة وما بعده، وتعتبر الكارثة الكبرى التي حلّت بفلسطين نهب الفرنج لمكتبة دار العلم التي مُحي أثرها إثر حملات الفرنجة المتكررة للقدس[٣].

العصر الأيوبي والمملوكي

كان فتح صلاح الدين الأيوبي لمدينة القدس بداية للحياة العلمية التي عمت بلاد الشام، وفلسطين خاصة. وقد استهل صلاح الدين عهده في فلسطين بأعمال عظيمة، ومنها إنشاء المدارس، والعمل على تزويد المسجد الأقصى بالكتب الدينية والعلمية. ويقول العماد الأصفهاني: «فاوض السلطان جلساءه من العلماء، والأبرار، والأتقياء الأخيار، في مدرسة للفقهاء الشافعية، ورباط للعلماء الصوفية»[٤]. الأمر الذي يؤكد بداية ازدهار الثقافة العربية، والاهتمام بها منذ مطلع العصر الأيوبي.

ابتداءً من أواخر القرن السادس الهجري، والرابع عشر الميلادي، بدأت ملامح جديدة للحركة المكتبية في فلسطين. وتميَّز عصر الأيوبيين، والمماليك، والقسم الأول من العصر العثماني بنهضة علمية حقيقية، تمثلت في مظاهر متعددة، منها البدء في إنشاء المدارس، ثم كان تطور هذه المدارس، وازدهار معاهد العلم التي وفد إليها الكثير من العلماء من داخل فلسطين، وخارجها، وكثر التأليف، وراجت الكتب، وازداد عددها زيادة كبيرة، بالإضافة إلى تطور إنشاء المكتبات بشكل ملحوظ، والإنفاق على الكتب.

كما كثرت المكتبات الخاصة في بيوت شيوخ المدارس، ورجال العلم، وكان في القدس، وحدها، أكثر من سبعين مدرسة، وعشرات الزوايا، والرباطات، والخوانق التي امتلأت خزائنها بالكتب. فقد جاء في «الأُنس الجليل»، لمجير الدين الحنبلي: «أن الملك المعظم عيسى بن الملك العادل الأيوبي، أخي صلاح الدين الأيوبي، وقف على المدرسة النصرية، التي كانت بباب الرحمة، شرقي ساحة الحرم كتبًا، من جملتها كتاب إصلاح المنطق لأبي يوسف بن يعقوب بن السكيت، وقد وقف مجير الدين على كراسة من هذا الكتاب بخط ابن الخشاب، وتاريخ وقفها ٦١٠هجريًا - ١٢١٣م»[٥].

يعتبر ما فعله الأيوبيون بداية ازدهار الحركة العلمية في مدينة القدس، وكان مقدرًا للمماليك الذين استولوا على الحكم في أواسط القرن السابع الهجري، الثالث عشر الميلادي أن يسيروا في الحركة العلمية أميالًا إلى الأمام، ولم يتمكن الأيوبيون من إنجاز الكثير في إحياء الحركة العلمية في غير مدينة القدس؛ ذلك لأن البلاد لم تكن في حالة استقرار تام بعد احتلال الفرنجة القدس مرة أخرى. وبدءًا من ٦٢٦- ٦٤١هجرية/ ١٢٢٩-١٢٤٤م استمرت

هذه المنازعات أكثر من نصف قرن، الأمر الذي أثر سلبًا على التطور العلمي في فلسطين، وبالتالي أخفق التطور الذي كان قد حدث من قبل في بداية ظهور المكتبات، والاهتمام بالكتب. لكن الأمر اختلف في العصر المملوكي، وقد شهد القرن التاسع الهجري، الخامس عشر الميلادي قمة التطور، حيث ازداد عدد العلماء الفلسطينيين، والعلماء الوافدين إلى فلسطين زيادة كبيرة، وكانت القدس قد أصبحت مركزًا مهمًا من مراكز العلم في فلسطين.

لقد جاء في الجزء الثاني من «الأنس الجليل» أن أكثر من ٤٤٠ سيرة مختصرة لعلماء، وخطباء، وقضاة، ومؤلفين، ممن عاشوا في بيت المقدس، منذ الفتح الأيوبي، حتى سنة ٩٠٠ للهجرة ١٤٩٤م، من بينهم أفراد عائلات علمية كثيرة، مثل بني القلقشندي، وبني جماعة، وبني غانم، وبني الديري. وهناك دراسة إحصائية أثبتت أن ثمانين عالمًا علّموا في القدس، بين القرنين الخامس والتاسع للهجرة، لقد جاءوا من اثنين وعشرين قطرًا، ومن ستين إلى سبعين مدينة، وجاء عدد كبير من هؤلاء من المغرب، التي كانت تربطها ببيت المقدس صلات وثيقة، على مدى العصور الإسلامية.

تركز هؤلاء العلماء في مدينة القدس، بما يحملونه معهم من مخطوطات نادرة، ومؤلفات خاصة بهم، التي وصل جزء كبير منها إلى المكتبات الخاصة فيما بعد[٦].

لقد شهد عصر المماليك نشاطًا منقطع النظير في التأليف من ناحية، وفي جمع الكتب، وإنشاء المكتبات، والعناية بها من ناحية أخرى، وكان سلاطين المماليك أنفسهم ممن يقدرون أهمية الكتب، فاحتفظوا بها في خزائن المدارس، ومن أهم الكتب في تلك الفترة كتب الحديث، والتفسير، والفقة، واللغة، والطب، والأدبيات، ودواوين الشعراء.

كما ألحقت خزائن كتب هؤلاء السلاطين بالخانقاوات، والجوامع، وكانت تغذية المكتبات مستمرة، حيث استمرت المكتبات تحصل على الكتب الجديدة، إما عن طريق الهدايا والهبات، وإما عن طريق النسخ، أو عن طريق الشراء، ولم يكن هناك ما يعرف بإعارة الكتب في تلك الفترة، وذلك لصعوبة نسخ الكتب، والحصول عليها[٧].

يرجع اهتمام المماليك بالكتب إلى انتشار أسواق الكتب، وتجارتها، فضلًا على تعظيم كثير من السلاطين والأمراء للعلم وأهله، بالإضافة إلى تميُّز هذا العصر بازدياد الثروات الضخمة التي مكّنت الكثيرين من اقتناء الكتب الثمينة، والنادرة، ووقفها على المساجد، والمدارس، والزوايا، لينتفع بها الطلاب، والعلماء، وفي وقت كانت فيه الكتب قليلة الانتشار، وغالية الثمن، وذلك لعدم معرفة الطباعة، وكانت المكتبات، في ذلك العصر، محور النشاط التعليمي، والثقافي[٨].

كما حرص العلماء على تكوين المكتبات، واقتناء الكثير من الكتب النادرة فيها، واعتز العلماء بتلك المكتبات التي اقتنوها، وحرصوا على ألا يراها غيرهم من المشتغلين بالعلم، عندما يزورونهم في منازلهم. وحرص العلماء على تزويد تلك المكتبات بأمهات الكتب، سواء عن طريق الشراء أو النسخ، بأن ينسخ الواحد منهم بنفسه بعضًا من الكتب، أو يستأجر أحد الأشخاص المعروف عنهم الاشتغال بالنسخ، بالإضافة إلى حرص أولئك العلماء على اقتناء كثير من الكتب، بخطوط مؤلفيها أنفسهم، وغالبًا ما كان يتم الشراء من ورثتهم، عقب وفاتهم. لعل من بين أسباب كثرة المكتبات الخاصة، في ذلك العصر، أن مصانع الورق التي وجدت في المدن القريبة من بيت المقدس كانت تمد المشتغلين ببيع، أو نسخ أو تأليف الكتب، بكميات وفيرة من الورق، بمختلف أنواعها المعروفة، في ذلك الوقت،

مما ساعد على انتشار الكتب وتجارتها، وقد أقام أشهر علماء هذا العصر في بيت المقدس، منهم ابن قدامة الحنبلي، وشهاب الدين أبو العباس، وابن النقيب، ونجم الدين الطوخي، وابن جبارة، وبدر الدين بن جماعة، وابن الهائم، والقلقشندي، وغيرهم الكثيرون، الذين أسهموا في حفظ التراث الثقافي الفلسطيني[٩].

العصر العثماني

استمر الحكم العثماني لبلاد الشام، ومن ضمنها فلسطين، طيلة ٤٠٠ سنة، كان أزهاها القرن الأول، من حيث ازدهار الحركة العلمية، واستمرت في العصر العثماني ظاهرة العائلات العلمية، التي ساعدت في الحفاظ على الموروث الثقافي، وقد توارث أفراد هذه العائلات وظائف التدريس، والمناصب الدينية الرفيعة، ومن هذه العائلات في القدس آل بني جماعة، وآل الديري، وآل أبي اللطف، الذين تولوا التدريس في المدرسة الصلاحية، وذلك بالإضافة إلى العائلات الفلسطينية الأخرى في صفد، وغزة، ونابلس. وفي تلك الفترة، درس ١٢٣ عالمًا من القدس في الأزهر الشريف، وأقاموا علاقات طيبة مع عدد من العلماء العرب، الذين التقوا بهم في الأزهر الشريف، وقد عثر، مؤخرًا، في القدس على ثلاث رسائل وردت إلى مفتي القدس، طاهر الحسيني، سنة ١٢٨٢ هجرية (١٨٦٥، ١٨٦٦م)، من المؤرخ المصري المعروف عبد الرحمن الجبرتي، ومن الشيخ حسن العطار، والشيخ عبد الرحمن الشرقاوي، وتضمنت رسالة العطار الحديث عن الكتب، والمخطوطات، الأمر الذي يؤكد استمرار الاهتمام بالكتب والمخطوطات في تلك الفترة، بالرغم مما أحدثه الاستعمار الفرنسي في القطر المصري بكل ما يتعلق بالثقافة العربية.

لقد عمل عدد كبير من أفراد العائلات المقدسية بالتدريس في مدارس القدس إبان العصر العثماني، الذي حفل بمكتبات خاصة كثيرة، تدل على النشاط العلمي، والنهضة العلمية، ومن أهم المكتبات التي أسهم في بنائها علماء كثر مكتبة الشيخ الخليلي، ومكتبة الشيخ محمد بن بدير، ومكتبة حسن بن عبد اللطيف الحسيني، ومكتبة خير الدين الرملي، ومكتبة يحيى بن شرف الدين بن قاضي الصلت[١٠].

لعل أفضل وصف للقدس، في ذلك العصر، يوجد في مخطوط للسائح التركي الشهير، ولياجلبي، الذي زار القدس حوالي سنة ١٦٧٠م ووصفها وصفًا جيدًا، فقال: «كان هناك سبع دور للحديث، وعشرون للقرآن، وأربعون مدرسة للبنين». كما يقول: «إن كل شيء كان على ما يرام، خلا الأمن». وكانت القدس تابعة، آنذاك، لطرابلس الشام، ومما سبق يتبين لنا أنه بالرغم مما كانت تتعرض له البلاد من فقدان تام لأمنها، وذلك لتعرض بلاد الشام الدائم للاعتداءات من قبل الطامعين، فإن الاهتمام بالحركة العلمية والثقافية، والتراثية ظل قائمًا[١١].

كان في القدس ٤٩ مكتبة تقصدها الجماهير في أي وقتٍ شاءت. وبالإضافة إلى ما احتوت عليه خزائن المدارس، والمساجد، وبيوت العلماء من خزائن الكتب، كما كان ثمة عدد كبير من المكتبات داخل الكنائس، ومن أمثلتها مكتبة القديس المخلص (١٥٥٨)، ومكتبة البطريركية الأرثوذكسية (١٨٦٥)، ومكتبة القديس جورج (١٨٩٠)، والمكتبة الإنجيلية الأثرية الفرنسية (١٨٩٠)، والجامعة العبرية (١٨٩٢)، ومكتبة الجامعة الروسية الأرثوذكسية (١٨٩٥). فضلًا على العديد من المكتبات، التي لا يُعرف تاريخ إنشائها، كمكتبة دير الصليب، والمكتبة الأرثوذكسية، ومكتبة الآباء الفرنسيين الكائنة في دير الدومنيكان. بالإضافة إلى المكتبات التي امتلكتها بعض الأسر، والأشخاص، كمكتبة الشيخ خليل الخالدي، ومكتبة إسعاف بك النشاشيبي، وإسحاق موسى الحسيني، وعبد الله مخلص، وخليل

السكاكيني، وغير هؤلاء كثيرون، ومن بين المكتبات العائلية: المكتبة الحسينية، والداودية، والفخرية لآل أبي السعود، وآل جار الله، وآل قطينة، وآل البديري، وآل الإمام، ومكتبة الترجمان[١٢].

تشير سجلات المحاكم الشرعية في القدس إلى وجود عدد كبير من المكتبات الخاصة التي تعود إلى العصر العثماني، وقد شاع أمر الكتب المخطوطة في بيوت العلماء، فكان هناك عالم متواضع، هو برهان الدين الناصري، مات وفي تركته ١٣٨ كتابًا مخطوطًا، وغيره الكثير من الشيوخ والعلماء الذين تركوا عددًا لا بأس به من المخطوطات، التي تعبر عن فترات تاريخية مزدهرة، ومن أهم هذه التركات، التي لا تقدر بثمن، وجدت في مكتبة الشيخ برهان الدين بن جماعة، خطيب المسجد الأقصى، والشيخ محمد بن بدير المقدسي، وعرفت مكتبته باسم مكتبة البديري، بموجب حجة شرعية مؤرخة في ١٩ ذي الحجة ١٢٠٥هـ (١٧٩٠م)، وضمت هذه المكتبة ١٠٠٠ مخطوط، لا يزال منها بقية، وتبدد أكثرها. ومكتبة الشيخ أحمد بن محمد، الشهير بالمؤقت، وهو مغربي الأصل، وكان مفتي الحنفية في المسجد الأقصى، وقيل عنه إنه جمع خزانة كتب نفيسة، وجليلة، ووقفها، وجعلها صدقة جارية، ووقفيتها مؤرخة في سنة ١١٨١هـ (١٧٦٧م)[١٣]. ومكتبة حسن عبد اللطيف الحسيني، مفتي القدس في القرن الثالث عشر الهجري، ويفيدنا السجل رقم ٢٦٧ من سجلات المحكمة الشرعية بالقدس بأنه كانت له مكتبة حافلة، وقفها بموجب حجة شرعية مؤرخة في سنة١٢٠١هـ (١٧٨٦م)، وقد حوت المكتبة كتبًا من موضوعات مختلفة، ومن بينها كتابان في الطب والبيطرة، فضلًا على الموضوعات الدينية واللغوية. مكتبة محمد صنع الله الخالدي، الذي كان باشكاتب (رئيس كُتاب) المحكمة الشرعية بالقدس. وقد وقف الشيخ صنع الله كتبًا كثيرة، وفي فهرس المكتبة الخالدية بالقدس مخطوط ١٤٥٧ عنوانه أسماء الكتب التي وقفها محمد صنع الله الخالدي على أولاده الذكور، وأحفاده. ومكتبة الشيخ أمين خليفة بن إبراهيم، من علماء القرن العاشر، وقد وقف كتبه على نفسه، ثم على أولاده، فإذا انقرضوا، انتقلت الكتب إلى مكتبة المدرسة البلدية الأرغوانية في القدس، وعدد تلك الكتب ٥٠ كتابًا[١٤].

إلى ذلك انتشرت مكتبات المدارس، كما ذكرنا سابقًا، ومن أهم مكتبات المدارس:

مكتبة المدرسة (الخانقاه) الفخرية

وقد وقفها القاضي فخر الدين محمد بن فضل الله، المتوفى ٧٣٢هـ (١٣٣١م)، اغتنت بمخطوطاتها الدينية، والفلكية، وقدر عدد مجلداتها بنحو عشرة آلاف مجلد، غير أن أفراد أسرة ابن السعود التي آل إليها الإشراف على الخانقاه قد اقتسموا الكتب فيما بينهم، الأمر الذي أدى إلى تبعثرها، وتلاشيها فيما بعد.

مكتبة المدرسة الأمينية

تقع في رواق الحرم الشمالي، بها غرفة مخصصة للكتب، وكان فيها كتب الشيخ محمد صالح الإمام، شيخ المدرسة، في القرن الثالث الهجري، وفي سجلات المحكمة الشرعية بالقدس حجة وقف وجبها الشيخ يحيى بن شرف الدين بن قاضي الصلت، المتوفى ١٠٤٠هـ (١٦٣٠م)، ومن أجداد عائلة الإمام، مدفون داخل المدرسة، وقد وقف الكتب على أولاده ونسله من بعده، ومن بعدهم طلبة العلم من السادة الشافعية في القدس الشريف، وحجة الوقف مؤرخة في ٢٥رجب سنة ١٠٠٧هـ (١٥٩٨م).

كما كان في المدرسة البلدية مكتبة الشيخ محمد الخليلي، مفتي السادة الشافعية، وفي المدرسة الأشرفية السلطانية خزائن للكتب. وقد جاء في الوقفية الخاصة بالمدرسة ثلاث خزائن كتب، يعود وقفها إلى السلطان قايتباي، كما كان في المدرسة الغادرية كتب موقوفة أيضًا، وقفها شهاب الدين أحمد الإنطاكي على المدرسة سنة ٩٤٥ هـ (١٥٣٨م)[١٥].

أما تركات الشيوخ، فتمثلت فيما يلي:

تركة الشيخ محب الدين محمد بن الدويك

كان قاضي القدس، وقد تضمنت تركته حوالي ١٥٠ كتابًا في التفسير، والتصوف، والأصول، والقراءات، والأدب، والنحو، بالإضافة إلى عدد من الكتب في الطب، والتاريخ، والجغرافيا، والرياضيات، والمنطق.

تركة الشيخ عبد الله بن عبد الله النقرزان

هو من أهم علماء القرن العاشر الهجري، وقد تضمنت تركته ٦٠ كتابًا من أهم الكتب التي كانت متداولة، آنذاك.

تركة الشيخ محمد أفندي زادة

كان مفتي القدس في القرن الثاني عشر الهجري، وتضمنت كتبًا دينية، ولغوية، ومنها من كتب العلوم، كتاب الرحمة في الطب والحكمة، لمهدي بن علي المقري، المتوفي ٨١٥ هـ (١٤١٢م).

احتلال القدس

منذ أواسط القرن التاسع عشر حتى اليوم توالت على فلسطين أربعة عهود مختلفة، هي القسم الأخير من العهد العثماني الذي انتهى عام ١٩١٧، عهد الاحتلال البريطاني، من ١٩١٧ حتى ١٩٤٨، ثم الاحتلال الإسرائيلي لمعظم فلسطين (١٩٤٨)، قبل الاحتلال الإسرائيلي لكل فلسطين ١٩٦٧ حتى اليوم.

الفترة من ١٩١٧ إلى ١٩١٨

تلك الفترة التي ازداد فيها التغلغل الاستعماري لبلاد الشام، ذلك التغلغل الذي أخذ أشكالًا مختلفة، وللناحية الثقافية نصيب كبير منها، فتأثرت الحركة العلمية، وضمنها المكتبات التي تأثرت كثيرًا بما حدث، فمنذ ذلك التوقيت لم يتم افتتاح مكتبات جديدة، بالإضافة إلى عدم تنظيم المكتبات القديمة، وكانت المكتبة الخالدية قد افتتحت قبل ذلك التاريخ بقليل، وتحديدًا عام (١٩٠٠م)، وقد تم تأسيس عدد من المكتبات الأجنبية في أواخر العهد العثماني، التي أدخل من خلالها مبادئ تنظيم جديدة في العمل المكتبي، التي اعتبرت جديدة، حيث حفظت الكتب في أماكن أفضل، أو ترتيبها على الرفوف، ووجود قاعات مجهزة للقراءة، بالإضافة إلى وضع فهارس حديثة بعض الشيء، وبقيت تلك المكتبات بعيدة عن أهل البلاد، وظلت معزولة، وغير مؤثرة في المكتبات الوطنية[١٦].

ما حدث عام ١٩٤٨

لقد نتج عن الاحتلال الإسرائيلي لمعظم فلسطين، عام ١٩٤٨، سقوط مئات المكتبات العامة، وآلاف المكتبات الخاصة، داخل عدد لا يحصى من البيوت التي رحل عنها أهلها، واستولى عليها الصهاينة، ونقلوا أفضلها إلى مكتبات معاهدهم، بالإضافة إلى ما قامت به قوات الاحتلال، فإن أعمال النهب اتسعت ممن استغلوا الفوضى التي حدثت في البلاد، وقام هؤلاء بنهب عدد من المكتبات العريقة، وعلى رأسها مكتبة إسعاف بك النشاشيبي، وقد حملوها إلى مدينة الزرقاء في الأردن، وباعوها بالرطل لأصحاب الأفران، كما أن هناك مكتبات هُجرت، وأكلها العث والرطوبة، وازدادت آنذاك أعمال النهب، والحرق، من قبل قوات الاحتلال، بالإضافة إلى منع استيراد الكتب، ومنع تداولها، ونشرها، وبدأ ذلك بشكل كبير منذ عام ١٩٦٧، وحتى الآن تتعرض الهوية العربية للاعتداءات من قبل قوات الاحتلال الإسرائيلي، وذلك لمحو كل ما هو عربي، وإحلال ثقافة جديدة تكرِّس «حق» الاحتلال الإسرائيلي في امتلاكه للأرض الفلسطينية، على أن ثمة الكثيرين الذين يتصدون لتلك المحاولات الصهيونية، التي تهدف إلى محو تاريخ الثقافة العربية الفلسطينية العريقة[١٧].

أما أهم مكتبات العائلات، فلعلها:

المكتبة الخليلية

وهي تركة الشيخ عبد المعطي الخليلي، مفتي الشافعية بالقدس، ومن علماء المسجد الأقصى، توفي سنة ١١٥٤هـ (١٧٤١م)، ودفن في تربة باب الرحمة، وقد تحدث حسن عبد اللطيف الحسيني في تراجم أهل القدس عن المكتبة الخليلية، قائلًا: «جمع مولانا خزانة كتب علم فريدة، من الكتب الصحيحة المجيدة، وهي، الآن، نفع نافع لكل طالب علم، وفي وقفية الشيخ الخليلي ثبت بأسماء الكتب الموقوفة، مرتبة حسب المواضيع، ومنها سبعة مصاحف شريفة، وكتب عديدة في التفسير، والحديث، والفقة، والتصوف، والأصول، والتوحيد، والقراءات، والفرائض، والحساب والفلك، والنحو، والمعاني، والبيان، واللغة، والمنطق، والصرف، والعروض. ويقدر عدد المجلدات بسبعة آلاف مجلد.

لقد وقف الشيخ الخليلي الكتب على نفسه مدة حياته، ثم إلى أولاده وأحفاده، ما تناسلوا، فإذا انقرضوا فعلى أقرب عصبات الواقف ما تناسلوا، فإذا انقرضوا فعلى الزاوية المحمدية في صحن الصخرة، وعلى الفقهاء الشافعية. ووضع الخليلي شروطًا كثيرة للحفاظ على الكتب، بحيث لا تباع، ولا توهب، ولا ترهن، ولا تهدى لأحد من الحكام والأعيان، ولا تستبدل. كما أوصى بالعناية بالكتب، وترميمها، وتجليدها، وعدم إعارتها، إلا لطلبة العلم، وأن تبقى الكتب تحت أيدي الموقوف عليهم في المدرسة البلدية، ما داموا فيها. وقد وضع الشيخ الخليلي الكتب تحت تصرف أهل بيت المقدس، وبذلك تعد مكتبة الشيخ الخليلي، وكان مقرها المدرسة البلدية، مكتبة عامة مفتوحة الأبواب لكل الناس، وهي من المكتبات التي لا تزال باقية في القدس حتى اليوم[١٨].

يقال إن الشيخ الخليلي أول من حقق فكرة إيجاد مكتبة عامة في القدس، استنادًا إلى وقفية كتبه. وقد حفظت الكتب المذكورة في المدرسة البلدية، التي أنشأها نائب السلطان، الأمير سيف الدين منكلي بغا، المتوفى سنة٧٨٢ هجرية (١٣٨١م)[١٩].

على أن الكثير من المخطوطات التي كانت داخل المكتبة اختفت، ولا يوجد لها فهرس الآن[٢٠].

دار الكتب الخالدية

تعد من أعظم دور كتب القدس، تقع في خط «باب السلسلة»، على يمين الحرم الشريف، وهي المدرسة المعروفة باسم «بركة خان»، التي آل ملكها إلى آل الخالدي إلى عدة قرون مضت، وانتقلت إلى ملك السيدة خديجة خانم الخالدي، ابنة القاضي موسى أفندي الخالدي، قاضي عسكر بر الأناضول، وأوصت خديجة ولدها، الحاج راغب أفندي، رئيس المحكمة الشرعية بيافا، بأن يجعلها وقفا، ويضع فيها كتب الأسرة الخالدية. وقد نفذ راغب وصية والدته، سنة ٣١٨ هـ (١٩٠٠م)، وأعانه في ذلك شيخ الشام، طاهر أفندي الجزائري، وقام بترتيب كتبها، وعاونه في ذلك الشيخ أبو الخير محمد بن محمود الحبال الدمشقي، وطبعا لها فهرسًا اشتمل على أسماء الكتب الموجودة[٢١].

لقد جرى الاتفاق على أنه متى توفي أحد أفراد الأسرة تنقل إلى المكتبة الخالدية. وهكذا ضمت إليها كتب يوسف ضياء الدين باشا الخالدي، نائب القدس في مجلس المبعوثان العثماني، سنة ١٨٧٨م، ومكتبة روحي بك الخالدي، الرئيس الثاني لمجلس المبعوثان العثماني، عام ١٩٠٨م، ونظيف بك الخالدي، أحد أهم مهندسي السكة الحديدية الحجازية، وأحمد بدوي بك الخالدي، وغيرهم من آل الخالدي. ويقول الرحالة دي طرازي: «ما كانت المكتبة تظهر إلى الوجود، لولا أن أقبل إلى القدس الشيخ العلامة طاهر الجزائري، منفيًّا من دمشق، بأمر السلطة العثمانية، وكان من أكبر غلاة الكتب، وصديقًا حميمًا للحاج راغب راغب الخالدي، مؤسس المكتبة»[٢٢].

ثم تولى الشيخ أمين الأنصاري إدارة المكتبة، وبقيت إدارته حتى توفي في مطلع الخمسينيات، وكان يتقاضى على ذلك أجرًا من ريع الوقف، الذي وقفه الشيخ راغب الخالدي، الذي وقف على المكتبة نصف حمَّام العين. وبعد وفاة الأنصاري تولى ابنه إدارة المكتبة، وفي عام ١٩٦٧ تولى أمر المكتبة حيدر أفندي الخالدي بوصفه قائمًا بأعمال متولي أوقاف آل الخالدي في القدس[٢٣].

أما عدد الكتب في المكتبة الخالدية، فكانت تقرب من أربعة آلاف مجلد، ثلثاها مخطوطات نادرة، وعدد من نفائس المطبوعات التي جلبها عدد من المستشرقين[٢٤].

نظرًا لأهمية المكتبة الخالدية قامت بعثة من «معهد المخطوطات» في جامعة الدول العربية، بزيارة المكتبة عام ١٩٥٣م، وتم تصوير مخطوطات المكتبة، لكن ما تم تصويره قد تعرض للتلف، فلا يستطيع أحد الاطلاع عليه. وفي محاولة أخرى، قامت الجامعة الأردنية بتصوير مجلدات المكتبة من جديد، وبالفعل وصلتها بعض الصور، وستوالي تصوير الباقي، لكن التصوير وحده لا يكفي في حفظ المخطوطات، والمطبوعات الأصلية، وحمايتها من التلف، الأمر الذي يستدعي وقفة من قبل العلماء المهتمين بحماية التراث الثقافي في العالم العربي تحديدًا، للحفاظ على ما تبقى من مخطوطات ومطبوعات تلك المكتبة.

لقد تعرضت المكتبة إلى محاولة مصادرتها من قبل سلطات الاحتلال الإسرائيلي، تلك المحاولة التي باءت بالفشل، بعد أن راجع حيدر الخالدي السلطات الإسرائيلية باعتبار الدار ملكًا من أملاك وقف آل الخالدي، وبالطبع ألغي أمر المصادرة[٢٥].

لقد ضاع، بالفعل، عدد كبير مما تحتويه المكتبة، فعندما تأسست المكتبة كانت تضم ١٣١٨ كتابًا. وفي عام ١٩٣٦

ازداد عدد كتبها، ومخطوطاتها، حتى بلغ سبعة آلاف مجلد، ثلثها مخطوطات تعود أجزاء منها إلى سبعة قرون مضت. وفي عام ١٩٤٥م، ازداد عدد الكتب والمخطوطات إلى عشرة آلاف كتابٍ باللغات العربية، والإنجليزية، والفرنسية، والفارسية، والتركية.

لقد أُعد للمكتبة فهرس عام ١٩٧٣، أكد أن عدد الكتب والمخطوطات لا يتجاوز الآلاف الستة، بالتحديد ٥٩٨٠ كتابًا ومخطوطًا، ومنها ٤٤١٢ باللغة العربية، أي أن نصف المكتبة تقريبًا قد اختفى[٢٦].

لقد تعددت نوعيات الكتب في المكتبة، وضمَّت كتب التفسير، والحديث، والتجويد، والقراءات والرسم، والأصول والفتاوى، والفقة الحنفي، وفقة المذاهب الأربعة، والتوحيد، والفرائض النبوية، والتصوف، والمواعظ، والحِكَم، والنحو، واللغة، والأدب، والسياسة، والدواوين، والمدائح النبوية، والسيرة النبوية، والمناقب، وكتب التراجم، والفلك، والطب، والروحانيات، والمجاميع. ما يؤكد أن دار الكتب الخالدية هي من أهم دور الكتب في تاريخ فلسطين[٢٧].

دار الكتب الفخرية

هي قسم من الخانقاه الفخرية المجاورة لجامع المغاربة، ويعود وقفها إلى القاضي فخر الدين عبد الله بن محمد بن فضل الله، ناظر الجيوش الإسلامية، المتوفى سنة ٧٣٢هـ. والزاوية، اليوم، ملك لآل أبي السعود، تلك الأسرة التي تقطن القدس منذ نيف وسبعة قرون، وبلغ عدد كتب هذه الدار نحو عشرة آلاف مجلد تقريبًا. وقد نفدت الكتب وتفرقت بعد أن اقتسمتها الأسرة، ولم تعد نفعًا لأحد[٢٨].

مكتبة عبد الله مخلص

تُعرف بخزانة عبد الله بك مخلص، عضو «المجمع العربي بدمشق»، وهو من علماء التاريخ والآثار، وقد سكن القدس، بعد انتقاله من عكا، ناقلًا معه إلى القدس مكتبة عريقة، احتوت على عدد من المخطوطات والكتب النادرة، ووضعها في دير القربان، الذي نسف في نهاية عهد الاحتلال البريطاني، وتحديدًا أثناء خروج الاحتلال، بعد تسليم القدس إلى العصابات الصهيونية، التي بلا شك أكملت مسيرة الاحتلال في القضاء على كل ما يحفظ تاريخ فلسطين. وقد ضاعت كل الكتب والمخطوطات تحت الأنقاض، وقد زاد عددها على ٣٠٠٠ مجلد، بينها ١٢٠ مخطوطًا[٢٩].

خزانة آل قطينة

تُنسب الخزانة إلى تلك الأسرة الحنبلية الوحيدة، كما صرح أحمد سامح الخالدي في أحد أحاديثه. ويعود نسب هؤلاء إلى مجير الدين الحنبلي، صاحب «تاريخ القدس والخليل»، وتقع خزانة هؤلاء بباب العمود، وكان في الخزانة أربعة آلاف مصنَّف، ومن بينها مخطوطات نفيسة، في الرياضيات، والفلك، والتنجيم، ولم يبق من تلك الخزانة اليوم شيء[٣٠].

مكتبة الشيخ حسام جار الله

كانت تضم حوالي ألفيْ كتاب ومخطوط في العلوم الإسلامية والعلوم العربية، والأدب العربي، ومن بينها مخطوط

قرآن، مجلد بجلد الغزال، وقد سرقت المكتبة عام ١٩٤٨، من قبل الصهاينة، كما احترقت مكتبة إسحاق موسى الحسيني، وقد بيعت مكتبات أُخرى، بعد نهبها، مثل مكتبة فهمي الأنصاري، ومروان العسلي، التي كانت تضم ٤٥٠٠ مجلد، وقد جمع منها د. إسحاق موسى الحسيني زهاء ٥٠٠ مخطوط من أماكن متفرقة، وتوجد الآن في كلية الآداب بنات في القدس[٣١].

خزانة آل البديري

آل البديري من أعرق أُسر القدس التي امتلكت خزائن كبيرة، ومليئة بالمخطوطات، وهي موجودة عند الشيخ محمد أفندي البديري، الذي جعلها من أجنحة المسجد الأقصى[٣٢].

خزانة الشيخ محمود اللحام

تقع في ضاحية سلوان، ويزيد عدد كتبها على أربعة آلاف مصنَّف[٣٣].

مكتبة حسن الترجمان

أسسها حسن الترجمان الصالح، وقد اعتنى بجمع كل ما يقع تحت يده من مخطوطات ومطبوعات، حتى بلغ ما جمعه ثلاثة آلاف مجلد، بينها تسعمائة مخطوط[٣٤].

تلك بعض ما تبقى من المكتبات التي فُقدت، أو سطا عليها الاحتلال البريطاني، ومن بعده الصهيوني، ونهب نفائس مخطوطاتها وكتبها، التي تعود إلى قرون عدة، محاولة من الاحتلال لطمس الثقافة العربية الفلسطينية، ومحو الهوية العربية، التي حملتها خزائن تلك المكتبات بداخلها قرونًا عديدة، ومما ذكرناه عن تاريخ القدس تلك المدينة العريقة يتبين لنا أنها من أفضل مراكز الثقافة العربية الأبدية، مهما حاول غاصبوها أن يمحوا تاريخها العربي.

* * *

هوامش الفصل الثامن:

(١) كامل جميل العسلي، **معاهد العلم في بيت المقدس**، بحث مقدم إلى المؤتمر العلمي الثالث لتاريخ بلاد الشام، عمان، ١٩٨١، ص٣٧٣، ٣٧٤.

(٢) **المصدر نفسه**، الصفحات نفسها.

(٣) **الموسوعة الفلسطينية**، القسم الخاص، المجلد الثالث، بيروت، ١٩٩٠ (انظر: كامل العسلي، المكتبات الفلسطينية منذ الفتح الإسلامي حتى سنة ١٩٨٥، ٢٨٤ ـ ٢٨٥).

(٤) عرفة عبده علي، **القدس العتيقة مدينة التاريخ والمقدسات**، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠٠٧، ص٧١.

(٥) الموسوعة الفلسطينية، **مصدر سبق ذكره**، ص٢٨٥ ، ٢٨٦.

(٦) **المرجع نفسه**، ص١٢ ، ١٣.

(٧) سعيد عبد الفتاح عاشور، **العصر المماليكي في مصر والشام**، مطبعة لجنة البيان العربي، القاهرة، ١٩٨٦، ١٩٦٥، ص٣٣٠ : ٣٣٦.

(٨) علي الـ يد علي، **القدس في العصر المملوكي**، ط١، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٨٦، ص١٦٨، ١٦٩.

(٩) **المصدر نفسه**، ص ١٧١، ١٧٢.

(١٠) الموسوعة الفلسطينية، **مصدر سبق ذكره**، ص١٩: ٢٤.

(١١) عارف العارف، **تاريخ القدس**، ط٢، دار المعارف، القاهرة ،١٩٩٤، ص١٠٥ ، ١٠٦.

(١٢) **المصدر نفسه**، ص ١٩٨: ٢٠٢.

(١٣) الموسوعة الفلسطينية، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٨٨.

(١٤) **المصدر نفسه**، الصفحات نفسها.

(١٥) **المصدر نفسه**، ص ٢٨٦ .

(١٦) الموسوعة الفلسطينية، **مصدر سبق ذكره**، ٢٩٣، ٢٩٤.

(١٧) **المصدر نفسه**، ص٢٩٦ ، ٢٩٧.

(١٨) **المصدر نفسه**، ص ٢٨٩، ٢٩٠.

(١٩) عبده، **مصدر سبق ذكره**، ص ٧٢.

(٢٠) د.صلاح الدين المنجّد (معد ومقدم)، **المخطوطات العربية في فلسطين**، ط١، دار الكتاب الجديد، بيروت، ١٩٨٢، ص١٢.

(٢١) **المصدر نفسه**، ص١٠، ١١.

(٢٢) العسلي، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٨٤: ٢٨٨.

(٢٣) **المصدر نفسه**، ص ٣٨١.

(٢٤) المنجد، **مصدر سبق ذكره**، ص ٣٨٠.

(٢٥) **المصدر نفسه**، ص٦٤.

(٢٦) العسلي، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٨٤: ٢٨٥ .

(٢٧) المنجد، **مصدر سبق ذكره**، ص ٢٣: ٥٠.

(٢٨) **المصدر نفسه**، ص ١٢، ١٣ .

(٢٩) الموسوعة الفلسطينية، **مصدر سبق ذكره**، ص٣٠٦ .

(٣٠) المنجد، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٣ .

(٣١) الموسوعة الفلسطينية، **مصدر سبق ذكره**، ص ٣٠٦ .

(٣٢) المنجد، **مصدر سبق ذكره**، ص ١٣ .

(٣٣) **المصدر نفسه**، الصفحات نفسها.

(٣٤) العسلي، **مصدر سبق ذكره**، ص ٣٩١ .

* * *